البحث التاسع

نوم أصحاب الكهف ثلاثمائة سنة وتسعاً ثم بعثهم

جوابا لسؤال من السيد علي نصوح الطاهر من نابلس:

قال تعالى في سورة الكهف٢٦: (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا إلخ).

كان قد جاءني من حضرة الفاضل السيد علي نصوح الطاهر النابلسي مفتش الزراعة في القسم الشمالي من فلسطين تحرير محتوى على ثلاثة أسئلة وطلب مني أن يكون جوابي عليها منطقيا معقولا.

أما جواب السؤال الأول المتعلق بولادة المسيح وجواب الثالث المتعلق بإحراق إبراهيم فسيأتي الكلام فيهما في موضعهما من هذا الكتاب وأما جواب السؤال الثاني وهو (كيف نام أهل الكهف ثلاثمائة سنة وتسع سنين في كهفهم، وكيف ضرب على آذانهم فيه هذه المدة الطويلة) فإنني سأذكره هنا فأقول:-

ما قاله المفسرون في هذه الآيات وبيان ضعفه

أجمع المفسرون على أن الضرب على آذانهم في الكهف هو انامتهم نوما ثقيلا مرة واحدة سنين عددا. قال بعضهم أي سنين كثيرة غير معلومة. وقال بعضهم هي السنون الثلاثمائة وتسع المذكورة في الآية بعدها. ولكني أقول أن هذا بعيد الأمور:-

١- قوله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) فان قوله (أم حسبت) استفهام إنكاري يدل على إنكار حسبان أنهم من الآيات الريبة العجيبة كما يظن الناس الذين يتناقلون أخبارهم من القديم في المجالس، أي لا تحسب أن حادثة أهل الكهف حادثة غريبة عجيبة كما يحسبها الناس الذين سألوك عنها وأرادوا امتحانك في بيان حكايتها لأن حكايتها بالحقيقة ليست كما يزعمون بل كما نقصها عليك بالحق فيما بعد.

٢- قوله تعالى (ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) إذ لو كانوا نائمين دائما نوما حقيقيا لما أمكنهم أن يحصوا ما لبثوا؛ لأن النائم المضروب على أذنيه حقيقة لا يقدر أن يحصى الساعات في نومه فضلا عن الأشهر والسنين بل مئات السنين، وحينئذ فيصبح قوله تعالى (لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) قولا لا معنى له ولا فائدة فيه ولا لزوم لذكره، إذ لا يمكن أن يكون أحد الحزبين أحصى من الآخر في ذلك، لأنهم جميعا غير قادرين على هذا الإحصاء ما داموا نائمين حقيقة على زعم المفسرين.

٣- قوله تعالى (وهيئ لنا من أمرنا رشدا) إذ النائم لا يحتاج إلى إرشاد في أمره لأنه مغطى العقل، غير مكلف ولا أمر له ولا حركة عملية يحتاج إلى إرشاد فيها.

٤- قوله تعالى (فأووا إلى الكهف ينشر لكم من رحمته). إذ النائم نوما حقيقيا دائما لا معنى لنشر الرحمة له، لأن نشر الرحمة يستلزم أعمالا كثيرة منتشرة حتى تكون الراحة أيضا منتشرة بقدر تلك الأعمال.

٥- قوله تعالى (ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) لأن النائم ليس له من الأمور والأعمال ما يحتاج معها إلى مرافق أو إلى معاون له فيها.

وبالجملة فإن آيات القرآن تشعر بأن حادثة أهل الكهف لم تكن من الأشياء الغريبة العجيبة كما يظن الناس في الزمان كما أنها تشعر أيضا بأنهم لم يكونوا نائمين دائما مضروبا على آذانهم ضربا حقيقيا كما يقول المفسرون.

ما أفهمه في معاني جميع الآيات المتعلقة بهذه القصة

خلافا لما قال المفسرون فيها

إنني أقول يحتمل أن تكون المراد من الضرب على آذانهم في الكهف اعتزالهم عن الناس اعتزالا كليا في الكهف وعدم اختلاطهم بأحد منهم، لأن المعتزل عن الناس الذي لا يجتمع بأحد منهم أصلا مضروب على أذنه بعدم استماع شيء منهم. وهذا لا ينافي أنهم كانوا عائشين في الكهف كالعادة ينامون تارة ويتقلبون في البراري الخالية من الناس يمينا وشمالا تارة أخرى بحيث لا يمكنون أحدا من معرفتهم، لأنهم كانوا فارين من وجه الحكومة، مطلوبين لها كما يدل على قوله تعالى: (إنهم أن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا). على أن قوله تعالى (سنين عددا) ليس معناه سنين كثيرة بل معناه سنين قليلة كما يدل على ذلك قوله تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم أياما معدودات) أياما قلائل تعد على الأصابع. والعدد يصدق على اثنين فأكثر فقوله (سنين عددا) لا يدل على الكثرة وإنما يدل على القلة التي تصدق على ثلاث سنين أو ما يقارب منها.

وعليه فيكون المراد من الضرب على الآذان هو الاعتزال في الكهف عن الناس كما يشعر بذلك قوله تعالى: (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) ويصح أن يبقى الضرب على الآذان على معناه الحقيقي وهو النوم، ولكن المراد نومهم غالب أوقاتهم حيث أنهم لا شغل لهم يشتغلون به في الكهف فكانوا يصرفون معظم أوقاتهم فيا النوم، فعبرت الآية عن الأغلبية بما يشعر بالكلية مبالغة في كثرة نومهم مدة مكثهم في الكهف.

ومثل هذا مستعمل كثيرا في اللغة العربية وفي كلامنا العادي، حيث يقال: نام فلان يومه كله بمعنى أنه أمضى أغلبية يومه في النوم مما لا ينافي أنه كان يفيق في أوقات قصيرة لأكل وبراز ونحو ذلك مما هو ضروري.

ثم أن المفسرين قالوا أن أصحاب الكهف قد كانوا من قوم يعبدون الأوثان قبل موسى. وقيل بعده. وقيل قبل عيسى. وقيل بعده. والذين قالوا بعده قالوا ما نصه (إن أهل الإنجيل قد عظمت فيمه الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح عليه السلام متمسكين بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فإنه غلا غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد وأكثر فيها الفساد وقتل من خالفهم من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام فكان يتتبع الناس فيخيرهم بين القتل أو عبادة الأوثان والذبح لها فمن رغب في الحياة الدنيا انقاد لأمره وامتثله، ومن آثر الحياة الأبدية لم يبال بأي قتلة قتله فكان يقتل أهل الإيمان ويقطع أجسادهم ويجعلهم على سور المدينة وأبوابها. فلما رأى الفتية ذلك وكانوا من عظماء مدينتهم التي هي مدينة افسوس أو قيل طرسوس، فتشاورا في أمرهم واتفقوا على أن يأخذ كل منهم أمواله وما يلزم له من الطعام والشراب مدة طويلة وينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة يقال له بتجلوس ففعلوا ما فعلوا وآووا إلى الكهف إلى آخر ما قاله المفسرون في ذلك مما يدل على أنهم يريدون أن يجعلوا قوم أهل الكهف وملوكهم المسيحيين قد خرجوا من هذه الديانة المسيحية وعبدوا الأصنام وأنهم كانوا يعذبون ويقتلون كل من بقى على دين المسيح عليه السلام.

ولكنني أفهم في قوم أهل الكهف وملوكهم غير هذا وهو أن هؤلاء القوم وملوكهم كانوا من صميم المسيحيين وأن ملوكهم كانوا من حماة الإيمان المسيحي الذي يجبرون الناس على اعتناق العقيدة التي أحدثتها مجامع القس وهي عقيدة التثليث وأن المسيح بن الله) أي أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الآب والابن والروح القدس وكانت ملوك النصرانية استنادا على فتوى من السلطة الدينية الروحية تحكم على من يخالف هذه العقيدة بشتى العقوبات كحرق والشنق والذبح والرجم إلى غير ذلك من أنواع العقوبات المعروفة في تاريخ (محاكم التفتيش المسيحية) المليئة بالفظائع المشهورة في التاريخ.

وكان من لوازم هذا الإزهاق والتعسف أن فتية من الموحدين بالله تعالى، المتمسكين بتعالمي المسيح الحقة القائلة (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته).

أن يختفوا من وجه هؤلاء الظالمين الضالين الذين يعتقدون بالتثليث ويكلفون الناس بهذه العقيدة التي هي فوق عقولهم. وعليه فقد قرر هؤلاء الفتية أن يذهبوا إلى الكهف ويأووا إليه مدة من الزمن.

والدليل على أن هذا هو الحق الواقع دون ما قاله المفسرون قوله تعالى قبيل هذه الآية (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا، مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا). فهذه الآية مرتبطة تمام الارتباط بآية الكهف التي بعدها مما يدل على أن قوم أهل الكهف أي الملك وجماعته إنما كانوا من أقحاح المسيحيين الذين قالوا اتخذ الله ولدا ومن حماة الإيمان المسيحي المشهور الذي هو جعل المسيح بن الله أو أحد الأقانيم الثلاثة التي مجموعها الله. وحينئذ فأهل الكهف إنما هم نفر من المسيحيين الذين نقموا على هذه العقيدة المسيحية وعلى هذا الإيمان المسيحي الذي لحد الآن ملوك المسيحيين يجعلون أنفسهم حماة له وعليه فالأمر ليس كما قال المفسرون من أن قوم أهل الكهف أي الملك وجماعته كانوا من عبدة الأوثان والأصنام بل كانوا مسيحيين كمسيحي هذا الزمان سواء بسواء. ولكن هؤلاء الفتية هم الذين خرجوا من هذه المسيحية الفاسدة التي أساسها التثليث فوحدوا الله تعالى وآمنوا به وفروا من وجه المسيحيين.

وحيث أنك قد عرفت فيما سبق أن القرآن يفيد أن حادثة أهل الكهف ليست بالصفة التي يتناقلها الناس من أنهم كانوا في الكهف نائمين نومة واحدة سنين عديدة أراد الله أن يبين حقيقة هذه الحادثة بقوله (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا، وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) أي أن حقيقة هذه الحادثة ليست ما يتناقلها الناس من أنها أمر عجيب وإنما حقيقتها أن فتية من أحرار العقول ونيري القلوب قد آمنوا بربهم ووحدوه ولم يقلدوا غيرهم في اعتقاد أن المسيح هو الله أو ابن الله وأن الله قد اتخذ ولدا كما يقول المسيحيون فربطنا على قلوبهم أي قويناها وثبتناها، إذ قاموا علنا وجهارا ولم يبالوا بسيطرة الملك المسيحي ولا بغلبة الأمم المسيحية وكثرتهم فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها كالمسيح وأن قومنا الذين اتخذوا المسيح إلها أو اتخذوا من دون الله آلهة ثلاثة الأب والغبن والروح القدس وقالوا أن الله ثالث ثلاثة ليس لهم سلطان على ذلك أي لا دليل ولا حجة لهم على ما يقولون ويعتقدون، وحيث أنكم اعتزلتموهم وانفردتم عنهم في الاعتقادات والعبادات وأصبحتم لا تجتمعون بهم لأداء الطقوس في الكنائس والبيعات ولا تختلطون بهم في المجالس والمجتمعات فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا أ عونا لكم بدلا منهم. هذا ما أراه أقرب لمعنى هذه الآيات. خصوصا وأن قوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) يدل دلالة واضحة على أن ما يحكى ويشاع بين الناس في هذه الحادثة هو من الباطل.

ثم قال تعالى: (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله. من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا).

قال بعض المفسرين أن الله تعالى كان يصرف الشمس ويميلها بيد قدرته عن باب الكهف خرقا للعادة كرامة لأهل الكهف. ولكنني أقول! الأقرب للمعنى أن يقال أن الكهف الذي آووا إليه كان مظلما جدا بسبب عدم وصلوا لشمي إليه بحيث لا يمكن لأحد أن يبصرهم لو مد بصره إليهم، وبحيث يخاف أن يدخله أحد عليهم لكثرة ظلمته ومخافة أن يفتكوا به. وهو لا يشعر ولا يرى ولا يبصر، ولذلك كان هذا الكهف حصنا لهم بسبب شدة ظلمته لأن الشمس كانت إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين بسبب أن بابه كان شماليا، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال فكانت الشمس لا تدخل هذا الكهف أبدا بل لا تصل على بابه وه في فجوة منه أ جانب منه وكلبهم في فنائه أو بابه وهذا أقرب للمعنى من قول المفسرين أن الله تعالى كان يصرف الشمس بيد قدرته ويميلها عن باب الكهف خرقا للعادة وكرامة لأهل الكهف. وعليه فاسم الإشارة في قوله تعالى (ذلك من آيات الله) ليس راجعا لميل الشمس يمينا وشمالا كما يقول المفسرون لأن ذلك أمر عادي وإنما هو راجع إلى إيمان هؤلاء الفتية القليلين الذين لم يبالوا بالمجاهرة والقيام ضد الملك وضد الكثيرين من قومهم أي راجع إلى جرأتهم بتضحيتهم بأملاكهم وأموالهم وترك أعمالهم وأشغالهم ومشتهياتهم وملذاتهم بسكناهم في هذا الكهف المظلم لأجل حفظ عقيدتهم والفرار بدينهم ولا شك أن مثل هذا العمل من قبل هؤلاء الشباب إنما هو آية من آيات الله.

والدليل على أن المراد من ذلك ما قلناه قوله تعالى عقبها (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا). لأن ذلك يدل على أن هذا الشيء الذي هو من آيات الله إنما هو نوع من الهداية أي هداية هؤلاء الفتية بهذا الشكل الغريب لا ميل الشمس عنهم يمينا وشمالا.

ثم قال تعالى (وتحسبهم إيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا). قال المفسرون كانت أعينهم مفتوحة كأنهم ينظرون إليك وهم نيام فيحسبهم الناظر إليهم إيقاظا والحال أنهم نائمون وكان الله تعالى يقلبهم في كل عام مرتين مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال وقيل مرة واحدة في كل عام. وفي يوم عاشوراء، وقيل كل تسعة مسنين مرة وهذا التقليب إنما كان لحفظ أجسامهم من البلى وقالوا أنه بالنظر لكون شعورهم وأظفارهم قد طالت كثيرا فكانت لو اطلعت عليهم وهم بهذه الحالة لوليت منهم فرارا، وامتلأت منهم رعبا وخوفا.هذا ما قاله المفسرون.

وأقول أنهم يرد على ذلك أن الذي يمتلئ خوفا ورعبا، ويولي فرار من رؤية فتح الأعين ، وطول الشعر والأظفار إنما هم الأولاد الصغار أو ضعيفوا العقول والأحلام ولكن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليهم وسلم وللعقلاء من الناس. خصوصا وأن الناس كثيرا ما يرون الميت فضلا عن النائم مفتوح العينين فلا يولون فرارا منه، ولا يمتلئون منه رعبا. وأما تقليب أجسامهم خوفا من البلى فهو بعيد لأن من حفظ أجسامهم ثلاثماية سنة وتسع سيني بالتقليب لا يصعب عليه حفظهم بلا تقليب أيضا.

وإنني أرى في معنى هذه الآيات أن قوله تعالى (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود). أي أنهم حينما كانوا ينامون لا ينامون نوم استغراق بل نوم حذر وخوف من اكتشاف أعدائهم لهم أو الفتك بهم، فكنت تحسبهم وهم رقود أيقاظا من شدة تنبههم، وكثرة حذرهم، وكانوا يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال من كثرة الفكر والخوف وعدم التمكن من الاستغراق في النوم شأن كل خائف متفكر، أو يتقلبون بمعنى يتجولون حينما يفوقون من نومهم عن يمين الكهف وشماله في بعض حوائجهم أو دفع السآمة عنهم، ولكن بحيث لا يعرفهم أحد. وكنت لو اطلعت عليهم في أي حال من أحوالهم سواء في حال تقلبهم وهم نائمون في الكهف أو حال تقلبهم عن يمين الكهف وشماله عند الخروج منه تمتلئ منهم رعبا وفزعا وتولى منهم فرار وخوفا على نفسك منهم لكثرة ما تشاهده معهم من أنوا السلاح الذي كانوا يحملونه محافظة عل أنفسهم ولسدة ما ترى من الفروسية والشجاعة والجراءة وما تبصر في وجوههم من الوحشية والضراوة والحذر وهذا أمر يخافه العقلاء قبل غيرهم.

ثم قال تعالى: (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا).

قال المفسرون أي ما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم فضربنا على آذانه وأنمناهم وأبقيناهم أحياء لا يأكلون ولا يشربون ونقلبهم فكذلك بعثناهم أي أحييناهم من تلك النومة الطويلة التي تشبه الموت ليتساءلوا بينهم تساءل تنازع واختلاف في مدة لبثهم فقال قائل منهم كم لبثتم في نومكم في هذا الكهف قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم لأنه دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله في آخر النهار فلذلك قالوا لبثنا يوما فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم ثم قال رئيسهم يمليخا (ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) على آخر ما قاله المفسرون في ذلك.

ولكنني أقول أن معنى هذه الآيات إننا بعثناهم من رقدتهم وعزلتهم هذه بعد فراغ طعامهم وشرابهم الذي كانوا قد استحضروه معهم أي نبهنا أفكارهم لنتائج عزلتهم وانكماشهم وتوحشهم هذا ولما يترتب على عدم اختلاطهم بالناس وعدم تبادل المنافع معهم ليتساءلوا بينهم ويتباحثوا في ذلك قال قائل منهم كم لبثتم في حالتكم هذه فقال الذين لا يهمهم المتاعب والمشقات في سبيل الفرار بدينهم، ولا تزعجهم المصائب والمدلهمات في سبيل المحافظة على عقائدهم لبثنا يوما أو بعض يوم أي أن كل ما لاقيناه في هذا السبيل مهما اشتد وقعه فينا وطال زمنه علينا فإنما هو يوم أو بعض يوم بالنسبة لصلاح حالنا وصحة عقيدتنا وإخلاص عبادتنا لله تعالى. وقال آخرون منهم أي الذين حالتهم في تحمل المصائب، والتمسك بالدين أقل من حالة الأولين (ربك أعلم بما لبثتم) فالأولون أرادوا التصريح بما في نفوسهم من التحمل وعدم المبالاة بكل ما حصل لهم والآخرون أرادوا الإبهام وعدم البحث في هذا الشأن وقالوا بعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتم برزق منه حيث أن طعامنا الأول قد فرغ وسئمنا نوعه لأنه من الأطعمة الناشفة الجافة المخزونة فنفوسنا الآن تطلب طعاما طريا زكيا شهيا، ويجب على من يريد الذهاب إلى المدينة أن يتلطف ولا يشعرن بكم أحدا لأنهم أن ظهروا عليكم وعرفوا موضعكم يأتوا إليكم ويقتلوكم رجما أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا إذ لا يمكنكم بعد ذلك أن تختفوا فيما اختفيتم فيه الآن ولا أن تتحملوا فيما بعد مثل ما تحملتم الآن.

ثم قال تعالى: (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم. قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا).

قال المفسرون إن سبب الإعثار عليهم ومعرفتهم هو ما كان في وجه رسولهم الذي أرسلوه إلى المدينة من التجعد والآثار وطول الشعر والأظفار التي تدل على أنهم أناس قدماء، وقالو بعضهم أن الذي ذهب ليشتري الطعام من السوق أخرج الدراهم التي معه فوجدها قديمة جدا غير متداولة الآن فقال له إنك قد وجدت كنزا فحملوه إلى الملك فقال له من أين وجدت هذه الدراهم فقال بعت بها أمس شيئا من الثمر وخرجنا فرارا من الملك دقيانوس فقال له أن الملك دقيانوس كان في قديم الزمان وقد جاء بعده مئات من الأعوام فقص عليهم الأمر فقالوا أن هؤلاء قد بعثهم الله بعد موتهم. فذهب الملك وجماعته إليهم فرأوهم جالسين مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فتكلموا معهم وأخبروهم بما لقوا من دقيانوس ثم قالوا للملك وجماعته نستودكم الله ودعوا إليهم ورجعوا إلى مضاجعهم فتوفاهم الله تعالى، وبعد أن ماتوا تنازعوا في أمرهم فمن قائل ابنوا عليهم بنيانا ومن قائل نتخذ عليهم مسجدا وهناك حكايات كثيرة للمفسرين من هذا القبيل ليس لهم على واحد منهم أدنى دليل إلا قال وقيل.

وقال المفسرون أيضا في معنى قوله تعالى (ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لآتية لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم). أي إنما أعثرنا عليهم الناس الذين كانوا موجودين في ذلك الزمن ليعلم هؤلاء الناس أن وعد الله حق في البعث والحشر والنشور والخروج من القبور لأنهم كانوا في ذلك الوقت ينكرون البعث بالمرة وقيل كانوا ينكرون أنه بالجسد والروح معا فأثبت الله لهم بهذه الحادثة أن البعث حاصل وأنه بالحسد والروح معا كما بعث أصحاب الكهف بالجسد والروح معا.

أقول وأنت ترى أنه على تفسيره هذا إما أن يكون في هذه الآيات تناقص لأن الآيات الأولى تفيد أن أصحاب الكهف كانوا نائمين وهذه الآيات على تفسيرهم تفيد أنهم كانوا ميتين فأحياهم الله ليثبت لهؤلاء الناس صحة البعث بالجسد والروح.أما أن يكون الله تعالى قد استدل على الشيء بما لا يصيح أن يكون دليلا عليه حيث استدل على البعث بعد الموت بالبعث بعد النوم وهذا لا يصح أن يكون دليلا. وأيضا لو فسرنا الوعد والساعة بوعد الآخرة وساعة القيامة كما يقول المفسرون لا يكون هناك معنى للتعليل بقوله (إذ يتنازعون بينهم أمرهم) لأن المعنى يكون حينئذ (وكذلك أعثرنا عليهم الناس) ليعلم الناس أن وعد الله بالآخرة وساعتها لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمره فقالوا ابنوا عليهم إلخ.. وهذا كلام لا محصل له لأن العلة لا تناسب المعلول، ولذلك فإني]أفهم في هذه الآيات غير ما فهمه المفسرون فأقول:

إن معنى قوله تعالى (ليعلموا إلخ) أي ليعلم أصحاب الكهف لأنهم هم المتحدث عنهم لا الناس غيرهم. أي ليعلموا بإعثارنا الناس عليهم، وإرادتهم لقتلهم أن وقعد الله بالموت حق وان ساعة هلاك الإنسان وفنائه في الدنيا لا ريب فيها، وإن هروبهم إلى الكهف لا يغني عنهم من ذلك شيئا(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) فضلا عن الكهوف. أي أن أحد الأمرين اللذين كانوا قد تخوفوا منهما قد حصل وهو القتل، حيث أعثرنا عليهم أعدائهم فتنازعوا في أمرهم وفيما يصنعون بهم فكانوا من جملة الآراء أن يبنوا باب الكهف ويسدوهم عليهم وهم أحياء ليموتوا فيه (صبرا) أي يموتوا فيه جوعا وعطشا وخنقا، أو يخرجوا منه بعد البناء عليهم بأعجوبة إن كانت لهم حياة. أي لا بد من مجازاتهم على خروجهم عن عقائدنا ديننا ببناء باب الكهف عليهم فقط ولا لزوم لقتلهم الآن فعلا بأيدينا لأن ربهم أعلم بهم وأفضل فيهم فإن كانوا يستحقون الموت والهلاك أهلكهم الله في هذا الكهف وأماتهم فيه، وإلا أخرجهم منه بطريق من الطرق. أما نحن فلا مبرر لنا على قتلهم فعلا بالرجم أو الذبح أو غير ذلك وكان هذا الرأي هو المقبول من بين الآراء والمعمول به، ولذلك ذكره الله تعالى دون غيره إشارة على أنه هو الذي حصل فعلا. ثم أن الذين قد غلبوا على أمرهم واعتقدوا فيهم وفي حسن سلوكهم وصحة إيمانهم قالوا لنتخذن عليهم مسجدا لأنهم كانوا مؤمنين صالحين.

إلى هنا انتهى قصص الله الحق في أصحاب الكهف وفي نبأ هؤلاء الفتية ثم بدأ يذكر تعالى ما يقوله الناس فيهم بقوله (سيقولون ثلاثة إلخ) أقول أنت ترى أن هذا القصص الحق الذي قال عنه تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إلخ) لا يوجد فيه ما يدل على أن أصحاب الكهف كانوا نائمين مرة واحدة في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين كما يقول الناس، وإذا كان هذا المعنى لم يوجد ضمن قصص الله الحق في هذه المسألة فبأي طريقة يمكننا القول بصحته واعتباره.

ثم قال تعالى: (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة ثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيمه إلا مراء ظاهر، ولا تستفت فيم منهم أحدا) . أقول أي أن الناس قد تقولوا كثيرا في أمر هؤلاء الفتية وفي عددهم ولكن كل أقوالهم إنما هي ظنون إذ لا يعلم حقيقة أمرهم وعددهم إلا الله ونفر قليل ممن شاهدوهم، وحينئذ فلا تجادل هؤلاء المتقولين إلا مجادلة ظاهرة واضحة مقنعة لأننا قد قصصنا عليك نبأهم بالحق، ولا تستفت فيهم منهم أحدا لأنهم لا يعرفون الحق ومن لا يعرف الحق لا يستفتى.

ما قاله المفسرون في معنى قوله تعالى

(ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله)

وما أفهمه في معنى ذلك خلافا لهم

ثم قال تعالى: (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشادا.)

اختلف المفسرون في معنى هذه الآية فقال بعضهم أن القوم لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حادثة الكهف قال لهم أجيبكم غدا ولم يقل إن شاء الله فاحتبس عنه الوحي خمسة عشرا يوما وقيل أربعين يوما فشق ذلك عليه فنزلت تلك الآيات ونزلت هذه الآية تعليما له أن لا يقول عن شيء إني فاعله غدا إلا إذا قال أن شاء الله تعالى وقد تعقب الفخر الرازي هذا القول بما يطول شرحه.وقال بعضهم أن معناها أنك لا تقول عن شيء أني فاعله غدا إلا إذا شاء الله أي أذن لك إن تقوله. ولا يخفى بعد هذا القول أيضا.

وقال بعضهم أي لا تقل أبدا إني فاعل ذلك غدا لان حصول كل شيء متوقف على مشيئة الله تعالى ومشيئته غير معلومة لأحد فلا يجوز لأحد أبدا أن يقول أني فاعل ذلك غدا لجهله بمشيئة الله في هذا الفعل. ولا يخفى ما في هذا القول من الحجر والتضييق على الناس في بيان أغراضهم ومقاصدهم إذ قد يضطر الإنسان أن يقول هذا القول لبغض الأغراض والمقاصد.

وأنا أقول يحتمل أن يكون معناها إنك لا تقل عن شيء إني فاعله غدا إلا أن يشاء الله لك فعله بأن تتحصل لك أسبابه وموجباته وتتوفر عندك مقدماته ومقتضياته وتزول عنك موانعه وعثراته. فإذا وجد الأسباب المقتضية، وحصلت لك الظروف الملائمة وتيسر الأمر، وتسهل العمل فقد عرفت مشيئة الله تعالى فيه حينئذ فإذا قال الإنسان هذا القول في مثل هذه الحالة فإنما يكون قد قاله بناء على مشيئة الله تعالى التي ظهرت ل بوادرها وحصلت له علاماتها. أما إذا قال هذا القول في غير هذه الحالة فإنه يكون متعديا على مشيئة الله تعالى لأنه لم يحصل له أي علامة على حصولها ولا أي إشارة لوجودها ولذلك قال تعالى عقب هذه الآية (واذكر ربك إذا نسيت) أي تذكر الله تعالى عندما تصمم وتؤكد عمل الشيء بقولك (إني فاعل ذلك غدا) فإنك إذا تذكرته عند هذا التصميم والتأكيد تخجل من نفسك لأنك تعلم أنه الفاعل المختار مقلب القلوب والأبصار الذي لا يمكن لأحد أن يعمل عملا بغير (إرادته ومشيئته رغم تصميمك وتأكيدك، فإذا لم يشأ الله لك هذا الفعل فأين يذهب تصميمك هذا. فكان من الواجب عليك بدل أن تقول (إني فاعل ذلك غدا) أن تقول كما علمك الله في الآية بعدها بقوله (وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) أي عسى أن يهديني ويهيئ لي عملا أحسن من هذا العمل الذي صممت عليه، واقرب منه إلى الرشاد والتقوى كما قال تعالى (وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون).

والدليل على صحة ما أقول من أن المراد من قوله (إلا أن يشاء الله) ظهور وتبين أسباب وعلامات مشيئته تعالى حسبما بينا، وأنه ليس المراد أن يقول لفظ (أن شاء الله) قولا فقط. إن الآية جعلت المستثنى هو نفس المشيئة حيث لم تقل الآية (إلا أن تقول إن شاء الله) وهذا يشعر بأن القول ليس مرادا، وإنما المراد حصول علامات المشيئة فعلا.

هذا ما أراه أقرب لمعنى هذه الآية وهو لا ينافي أصلا أن يقول الإنسان (إن شاء الله) عند كل عمل يريد أن يعمله في المستقبل كما هو مفهوم من الحديث والسنة وإن كان ذلك ليس مرادا للآية هنا.

ووجه ارتباط وعطف قوله تعالى (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) على قوله (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) على مقتضى تفسيرنا أن الله تعالى لما نهى النبي (ص]) عن استفتاء أي واحد منهم في مسألة لأنهم لا يعملونها نهاه أيضا يعني أن يقول لهم حينما سألهو عنها (أجيبكم غدا) كما هو وارد في أسباب نزول هذه الآية لأنه لا يعلم أيضا العلامات التي تدل على أن الله سينزل عليه غدا وحيا ببيانها ولم تتوفر لديه الوسائل والأسباب التي يتحقق بها إنزال الجواب غدا حتى يحدده بذلك.ولهذا ولأجل استعجاله وافتياته على الله بتحديد الغد أخر الله عنه الوحي في ذلك خمسة عشر يوما كما يقول في أسباب النزول.

الأدلة على أن قوله (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين إلخ)

ليس من مقول الله تعالى

وإنما هو من مقول القوم الذين رد الله عليهم فيه

ثم قال تعالى: (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غير السموات والأرض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا).

أقول أن قوله (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) إنما هو حكاية عن المتقولين الذين يتناقلون هذه الحكاية رجما بالغيب وليس من مقول الله تعالى. والدليل على ذلك أمور:-

١. ما عرفته سابقا من أن قصص الله الحق ونبأه عن هذه الفتية قد انتهى قبل قوله (سيقولون إلخ) ولم يذكر الله تعالى في ضمن هذا القصص الحق أن هؤلاء الفتية لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسعا، وحينئذ يكون ذلك تابعا لقوله (سيقولون ثلاثة إلخ) ومن ضمنه.
٢. أنه يوجد في مصحف عبد الله (وقالوا ولبثوا في كهفهم إلخ) فهذه القراءة صريحة في أن قوله (ولبثوا) من مقول القوم لا من مقول الله تعالى.
٣. إن أصرح دليل على ذلك قوله عقبها (قل الله أعلم بما لبثوا) لأن هذا ر صريح على ادعاء أنهم (لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وتسعا). على أن لفظ (اللبث) لا يعني النوم وإنما يعني المكث والإقامة التي تكون باليقظة والنوم معا حسب العادة وهذا لا مانع في أن يكون ثلاثمائة سنة أو أكثر. بحسب ذراريهم وما توالد منهم.

وبالجملة فإن قوله (ولبثوا إلخ) إما هو من مقول القوم الذي صرح الله برده عليم وإنه لا يل على النوم الدائم. وحينئذ فبأي طريقة يجوز للمسلمين أن يقولوا أن أصحاب الكهف قد ناموا نومة واحدة في كهفهم وهم أحياء ثلاثمائة سنة وتسع سنين. ألم يقرأوا القرآن ويتدبروا معانيه؟! أم أنهم يقدمون الحكايات المتناقلة على صريح القرآن ؟! إن هذا لشيء عجاب.